المحاضرة الثانية:

المطلب الأول :مفهوم الثقافة وتعريفها

يُعد مفهوم الثقافة من المفاهيم المحورية في علم الاجتماع بصفة عامة، والأنثروبولوجيا الثقافية بصفة خاصة،ويشكّل مفهوم الثقافة أحد الأفكار الكبرى التي ساعدت البشرية على إنجاز الكثير من التقدم العلمي والتّطور الفكري، فهي لحظة مابعد الطبيعة كطريقة في معرفة الأشياءوا ٕدراكها، والمعرفة والإدراك يتمان من خلال إنتاج صور ذهنية تسبغ المعنى على الأشياء والظواهر، وتؤسس معايير لفهمها من خلال ترتيب العلاقة بين عناصرها بحيث تتَّضح الغاية منها.

ولفظ ثقافة مصدر من الفعلثقِفأوثقُف ،ويبدو أن المعنى الأصلي المادي لهذا الفعل هو تشذيب الرماح و تقويمها، والقائم بعملية التشذيب والتقويم هو المثقّف، والرمح المُعدّل المقوَّم الذي لا اعوجاج فيه هو المثقَّف.

وقد انتقل هذا المعنى المادي الأصلي إلى مجالات غير مادية، فأصبح يقال :ثقف الشيء أي تعلمه بسرعة، وثُقَفتُ الشيء :أي حذقته، و ورد في حديث الهجرة.. وهو غلام ثَقِف، أي ذو فطنة وذكاء، والمراد انه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه،و يقال ثَقِفتهُ إذا ظفرت به،ومن المجاز التثقيف التأديب و التهذيب

وهو ما يجعل هذا المفهوم العربي للثقافة لا يحمل في ذاته أحكاما قيمية تحدد نوعية الثقافة هل هي متأخرة بربرية وحشية رجعية أم متقدمة عصرية نيرة...الخ، ذلك أن منطلق مفهوم التدريب يجعل من جميع الثقافات طبقا لقيم مجتمعاتها وظروفها على الدرجة ذاتها من القيمة الإنسانية، فاللفظ العربي يعتبر الإنسان متقفا طالما انه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه في زمان هو مجتمعه وبيئته، لذلك يكون المثقف اشد ما يكون مرتبطا بمجتمعه وقضاياه بغض النظر عن كم المعارف المكدسة في ذهنه، والتي قد تكون كما يقول مالك بن نبي أفكارا ميتة أو مميتة، لان وظيفة المثقف هي إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة

والمنفعة وكل القيم التي تصلح الوجود الإنساني وتهذّبه وتقوم اعوجاجه، وهذا مايجعل مفهوم الثقافة مرتبطا بالنمط المجتمعي الذي يعيش في ظله الفرد.

ابن خلدون اعتبر أن الحضارة زائدة على الضروري من العمران، وأن الترف زائد على الحضارة في الوقت الذي يعتبر فيه معظم الباحثين إلى أن الحضارة مجموعُ " الثقافة "والمدَنيّة"، وأن" الثقافة تُعنى بالجوانب الفكرية والأخلاقية والفنية، بينما" المدنية "تعنى بالجوانب المادية، فالمعاني والدلالات العربية كان قد نسخها المفهوم الأجنبي أو حلّ محلها .حيث لم تتم الترجمة طبقا للدلالات الأصلية لكلا اللفظين حيث يختار من العربية اللفظ الذي تتساوى دلالاته أو تقارب دلالات اللفظ الأوربي، و إنما تمّت في المقابل اللفظي في معناه الخارجي المتداول ،مما أدى إلى طمس الدلالات الحقيقية للمفهوم العربي واستبدال دلالات أوربية بها، بحيث لم يعد من المفهوم العربي غير لفظه، أما جوهره ومعناه فلا علاقة له بالمظهر أو الوعاء اللفظي .ومن ثمة لم يكن غريبا أن يرجع الباحثون بعد ذلك في تأصيل هذه المفاهيم إلى مصادر أجنبية، وذلك أن السياق العام للتطور الفكري في العالم الإسلامي في القرنين الأخيرين أدى إلى نوع من الاستبعاد الإرادي أو اللاإرادي للمصادر العربية من الأطر المرجعية للباحثين، لأن مفاهيمهم ليست عربية وان كان حروفهم عربية. لذلك في ترجمة هذا اللفظ نجد مرة معنى الثقافة وأخرى بمعنى الحضارة ثم تمَّ الأخذ بصحة الترجمتين وإن كانتا في دلالتهما التاريخية و اللغوية الأجنبية مختلفتان.

إذن، لكلمة ثقافة مرادفات في اللغات الأوربية فهي تستعمل في اللغة الفرنسية culture وهي نفسها في اللغة الانجليزية مع اختلاف في النطق طبعا لتحمل معنى تهذيب النفس، وفي هذا السياق يقول **غيروشيه** Guy Rocher عن مسار تطور هذه الكلمة .. في كل مرة كان يضاف معنى جديد إلى كلمة الثقافة المأخوذة عن الفرنسية والمترجمة من الألمانية إلى الانجليزية وكان ذلك عن طريق التوسع في مفهوم هذه الكلمة تارة، أو عن طريق تشابه مرادفاتها تارة أخرى، من دون أن تفقد معناه الأصلي ،لكنها ابتعدت عن معناها الذي وُضعت له بسبب المعنى الجديد الذي لزمته.

وبالعودة إلى مرحلة القرون الوسطى استعملت الكلمة في معان مختلفة حيث وردت بمعنى العبادة الدينية، وفي القرن السابع عشر بمعنى العمل على الأرض، وفي القرن الثامن عشر بمعنى التطور الفكري للفرد، فقد أشار الفيلسوف الألماني يوهانغوتفريدهردر الذي لعب دورا كبيرا في تطور المفهوم حتى عد واضع المفهوم الحديث إلى أنكلّ الشّعوب بما فيها الأكثر توحشا منها ،لديها ثقافة. ولكن في أواخر ذلك القرن وضمن سلسلة من الدراسات تحت عنوان التاريخ العالمي،استخدمت الكلمة لأول مرة في ألمانيا بمعنى التقدم الفكري والاجتماعي العامل لإنسان .وباكرا، في الثمانينات تم اعتبار الثقافة علم الإنسان لأهميتها في دراسة المضامين الاجتماعية والقيمية.

أما في العلوم الاجتماعية، وفي علم الاجتماع بشكل خاص حملت معنى جديدا ابتعد كثيرا عن المعنى السابق لها، فقد استخدمها **ادواردتايلور** Edward Taylor لأول مرة في بريطانيا في كتاب الثقافة البدائية عام1871،الذي يعتبر أساسا للانثروبولوجيا الحديثة بمعنى أن الإنسان إنما هو ثقافته ،التي تمثل الوعي الجماعي للمجتمع أي روح المجتمع، التي تتما هى في أشكال وألوان مختلفة، تستند إلى اختلاف مجتمع عن آخر، فالظواهر الثقافية في بلد ما قد لا تجد قبولا في ثقافة بلد آخر.

لذلك فالتطور الثقافي حسب هربرت سبنسر يأتي نتيجة للتطور الاجتماعي ،أين يتحول المجتمع من أجزاء بسيطة إلى كيان آخر متعدد الأجزاء وبارز الملامح مايسميه بالتمايز البنيوي بمعنى نشوء مجالات ثقافية منفصلة.. عن الدين مثلا كالأخلاق والقانون..الخ، في هذا الإطار يرى الانثربولوجي جونديوي أن الثقافة تظهر في طائفتين أساسيتين من الظواهر هما:

1- السلوك البشري لأنها لا تشمل كل أنواع السلوك بل فقط ذلك الذي يتميز بالانتظام ومصدره عملية التعلم المميزة للجنس البشري، التي تعتبر إحدى الآليات الأساسية لنشوء الثقافة .فقابلية التعلم وتخطي التجربة الشخصية جعلت الإنسان خالقا للثقافة.

2- الأشياء التي تعتبر نتاجا له :فالثقافة هي نظام التصرفات المكتسبة ونتائج الأخرى التي تكون عناصرها الأساسية مشتركة لدى أعضاء المجتمع والمطروحة في نطاقه .

وقد عرف تايلور الثقافة : بأنها ذلك الكل المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والتقاليد وكل الإمكانات الأخرى والعادات التي يكتسبها الفرد كعضو في المجتمع.

و هي حسب روبرت بيرستد:ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل مانفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في المجتمع، بمعنى أن الثقافة هي البيئة التي يعيش فيها الإنسان بما فيها من منتجات مادية وغير مادية والتي تنتقل من جيل لآخر متضمنة بذلك الأنماط الظاهرة والباطنة للسلوك المكتسب عن طريق الرموز في مجتمع معين شاملة كل العلوم والفنون والقيم والقوانين والعادات وغير ذلك.

ويعرف مالك بن نبي الثقافة في كتابه مشكلة الثقافة بأنها :مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذو لادته و تصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباع هو شخصيته.

المطلب الثاني: مصطلحات لها علاقة بالثقافة

أوّلاً - العادة الجماعية:

فهي مجموعة من الأفعال والأعمال وألوان السلوك التي تنشأ في قلب الجماعة بصفة تلقائية لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر سلوكها وأوضاعها،وتتمثل أهميتها في ضبط السلوك ، وبعيدا عن مظاهر السلوك اكتشف وليم جيمس - الذي يعدُّ من ألمع من يمثل الاتجاه التفاعلي الرمزي - في العادة مبدأ نستطيع بواسطته تفسير السلوك بعوامل ذاتية داخلية (الغريزة) أكثر من تفسيره بعوامل أو قوى خارجية وبذلك تكون العادة الجماعية عنده مهمة كونها تسهم في الحياة الاجتماعية ككل. ويخلط البعض بين العادة والعرف،وتختلف الأعرافعن العاداتفي كونهاهي السنن الاجتماعية التي تدل على

المعنى الشائع للاستعمالات الخاصة بالعادات والتقاليد والقوانين خاصة عندما تحوى حكما، فالفرق هو فرق تكويني، فالعادة عرف ناقص يعوزها لتصبح عرفا أن يشعر الناس بضرورة احترامها، فكل عرف عادة وليست كل عادة عرفا.

ثانيا - التقاليد:

جمع لكلمة تقليد وهي مجموعة الممارسات الاجتماعية المكتسبة التي يكتسبها من المجتمع الذي تربَّى فيه ، وهي أشكال من السلوك والتصرفات الجماعية لها مكانة القداسة لدى أفراد مجتمع معين ، لأنها تعد في نظرهم الأفعال التي تحفظ هيبتهم وتمنحهم العزة والاعتبار في المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولا تهمّ التقاليد جميع طبقات المجتمع ، بل تَهمُّ فئة أو جماعة أو عائلة في المجتمع دون أن تكون منتشرة على جميع المستويات فيه. والتقاليد فيها نوع من الإلزام على الجماعة ولكن ليس إلى الحد الذي يفقد فيه المكانة الاجتماعية فيما لو لم يتمسك بها. وتتمثل التقاليد في الطقوس والشعائر مثلا والتي تكون مصحوبة دائما بحس خاص بالجبرية أو الإلزام ، والمظهر الغالب لها أنها دينية ، تنظمها قواعد مقدسة أو موقرة ذات سلطة قهرية لتحقيق غايات ذات وظيفة محددة ، الى جانب والرموز والاحتفاليات وهناك وسائل لتدعيم التقاليد كالحكم والأمثال والأناشيد والأساطير والحكايات..الخ

ثالثا - القيم:

هي الجانب الخفي من الثقافة الذي لا يستنتج إلا من خلال سلوكات الأفراد ومفاهيمهم، فهي تعتبر محلّ اهتمام الأفراد ومناط اتجاهاتهم لأنها عملية تصويب وتقويم ضمني لأيّ سلوك أو فكر والقدرة على إصدار أحكام قيمية عليها إمَّا بالإيجاب فتُقبل كقيمة أو بالسِّلب فتُرفَض وتُستَبعد.

رابعا - التراث الشعبي:

التراث الشعبي كما يذكر د.عبد الحميد يونس هو قوام الحياة الشعبية وليس مجرد ركيزة تدل على أصول أو مراحل تاريخية ، أو تكشف عن رواسب لم يعد لها وظيفة تلائم التطور والمعاصرة ، ذلك أنه في واقع أمره محصلة كاملة لثقافة شعب على اختلاف أجياله وبيئاته، يحمل في أعطافه الملامح النفسية والفكرية للمجتمع ، وهو الذي يصوغ الإطار العام ويحدد العلاقات بضبط السلوك بين الأفراد يتجلى في عناصر كثيرة مثل الفولكلور والموروث الثقافي والمعتقدات الشائعة وهي في أساسها تلقائية غير واعية لأن أساسها المحاولة العشوائية لإشباع الحاجات الضرورية.

المطلبالثالث: أهميةالثقافة

للثقافة أهمية بالغة في تشكيل وتكوين الأفراد التكوين الصحيح الذي يحدد الرؤية المستقبلية الصحيحة لهم وينمي مهاراتهم وقدراتهم ضمن الأطر الأخلاقية والضوابط الروحية والإنسانية ، لذلك فالثقافة أساسية لفهم المجتمع ونظمه ومؤسساته وعلاقاته ومشكلاته، إضافة إلى شمولها الفرد ودوافعه وقيمه وعاداته، وما إلى ذلك من عناصر الشخصية حيث أنها تمثل الجانب الفردي من ثقافة لذلك يذكر .المجتمع.فهي طريقة الحياة في مجتمع كما ورثها ذلك المجتمع وكما تعلمها وأضاف إليها هنري لاوست أنها تساهم بقوة في تشكيل الجانب الخلقي للفرد كونها مجموعة الأفكار والعبادات الموروثة التي يتكون فيها مبدأ خلقي لأمة ما ويؤمن أصحابها بصحتها، وتنشأ منها عملية خاصة بتلك الآمة تميزها عمّا سواها،و تحقق في الغالب الوحدة والكلية لكيان أساليب السلوك، إضافة إلى كونها نمطا من الأفكار والقيم التي تدعم ذلك السلوك..وقد ترتبط بقضايا السلم والتعايش والانسجام كون العوامل الثقافية هي التي تحدد هوية الفرد وشخصيته وردود أفعاله وطرق التعبير عن المشاعر، فهي مهمة لفهم الأفراد والجماعات والمجتمعات، وفهم مختلف علاقات القوى ضمنها، فتكسب شعورا بالوحدة والمصير المشترك والضبط الاجتماعي دون عوائق أو اضطرابات. ويؤدي تراكم الإرث الثقافي إلى تطور المجتمعات، بحيث لا يكرر الجيل اللاحق سابقة الجيل الماضي كما يحدث بشكل عام في الكائنات الأخرى، لان كل جيل ينتج أفكارا وأنماطا جديدة من السلوك والعلاقات والقيم، أو يعدل ويطور من موروثات سابقة وينقلها إلى غيره من الأجيال. كما تعاظمت أهمية الثقافة في إطار منظومة مجتمع المعرفة ومجتمع التعلم، أين يعتقد بعض المفكرين أن المجتمعات التي سيكتب لها النجاح في مجتمع المعرفة هي الشعوب ذات الثقافات العريقة والتي تتدرج ضمنها الشعوب